تصدير
للدكتور محمدى علام

من ذاكرتى

حين توفى الأُستاذ الإمام الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ تكاثر الراغبون فى رثائه بعد الدفن ، فاختير ستة ، جاء ترتيبهم فى إلقاء رثائهم كما يأتى :

الشيخ أحمد أبو خطوة ، وحسن باشا عاصم ، وحسن باشا عبد الرازق ، وقاسم بك أمين ، وحفنى بك ناصف ، وحافظ بك إبراهيم .

ومن المصادفات الغريبة ، أنهم تحدثوا فى أن ترتيبهم فى الوفاة ، سيكون كترتيبهم فى رثاء الإمام ، وشاء القدر أن الأربعة الأوائل ماتوا بترتيبهم فى الرثاء . ومرض حافظ إبراهيم ، فكتب إليه حفنى ناصف يقول :

أتذكر إذ كنّا على القبر أسبقة .

نعدّد فى آثار (الإمام) ونندب ؟

وقفْنا بترتيب ، وقد دَبّ بيننا

ممات على وَفْق الرثاء مرتّبُ :

« أبو خَطْوة » وَلّى ، وقَفّاه « عاصم » ،

وجاء لـ « عبد الرازق » الموت يَطلب ؛

فلَبّى ، وغابتْ بعده شمس « قاسم » ،

وعَما قريب نجم مَحْياىَ يَغْربُ .

فلا تَخْشَ مُلْكاً ما حييتُ ، وإن أُمِتْ

فمـــا أنت إلا خـــائفٌ تترقَّب

فخاطِرْ ، وقَعْ تحت القِطارِ ، ولا تَخَفْ ،

ونَمْ تحت بَيْت الوَقْفِ وهو مخَرَّب ،

وخضْ لُجَجَ الهَيْجَاءِ أَعْزَلَ آمِناً ؛

فإن المنايا منكَ تَجْرِى وتَهْرُبُ .

وتتوالى القصة بفكاهتها الرزينة ، بين الأَديبين العظيمين ، فعندما عيِّن حفنى ناصف كبيرا لمفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف ، وأُقيم بهذه المناسبة حفل لتكريمه ، أشار حافظ إبراهيم إلى المصادفة التى تحققت فى وفاة الأَربعة السابقين فى رثاء الإمام ، فقال فى قصيدته التى أنشدها فى حفل التكريم هذا ، مخاطباً حفنى ناصف .

أَخْشَى عليك المنـــايا ، حتى كأَنَّك مِنِّى ،

إذا شكوْت صداعاً أَطلْتُ تَسْهيدَ جَفْنِى ،

وإن عَـــراكَ هـــزالٌ هيَّأْتُ لَحْدِى وقطْنِى ،

وإن دَعَـــوتُ لِحَىٍّ يوماً ، فإياكَ أَعْنِى .

عُمرِى بِعمْرِكَ رَهْنٌ فَعِشْ أَلْفَ قَرْنِ .

ولما اكتمل تحقق المصادفة بموت حفنى ناصف (١٩١٩) ، (الخامس فى الترتيب) كان مطلع قصيدة حافظ فى رثائه (وقد سمعتها منه يوم تأْبينه لحفنى) .

آذَنتْ شَمْسُ حَياتِى بمَغِيبِ .

ودَنَا المَنْهَل ، يا نفس ، فَطِيبِى .

إنَّ مَن سار إليـــه سَيْرَنا

وَرَدَ الراحة مِن بَعْد اللُّغُوب :

قد مَضَى « حِفْنى » وهذا يومُنا
يَتَـدانَى ، فاسْتَثِيبِى وأَنِيبى .

* * *

قـد وقفْنا ستَّةً نَبـكِى عَلَى !
عالِمِ المشرقِ فى يـومٍ عَصِيبِ :
وقَفَ الخمسةُ قَبْلى فَمَضَوْا
هكذا قَبْلى ، وإنّى عن قريبِ ،
ورَدوا الحوْضَ تِبَاعاً فَقَضَوْا
باتفـاق فى مَناياهمْ عَجيبِ .
أنَا مذ بانوا وَوَلَّى عَهْدُهمْ
حاضِرُ اللَّوْعَةِ ، مَوْصول النَّحيبِ ،
هَدَأَتْ نِيران حزْنى هَدْأَةً ،
وانْطوَى « حفنى » ، فعادتْ للشُّبوب ،
فتذكرت به يومَ انطـوَى
صادق العَزْمةِ ، كشّاف الكُروب[1] .

رحمهم الله جميعاً !

مهدى علام
نائب رئيس المجمع
والمشرف على المجلـة

---

(١) يقصد الإمام محمد عبده .